تفسير ابن كثير

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة وذلك أن حاطبا هذا كان رجلا من المهاجرين وكان من أهل بدر أيضا وكان له بمكة أولاد ومال ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفا لعثمان فلما عزم رسول ا صلى ا عليه وسلّم على فتح مكة لما نقض أهلها العهد فأمر النبي صلى ا عليه وسلّم المسلمين بالتجهيز لغزوهم وقال [اللهم عم عليهم خبرنا] فعمد حاطب هذا فكتب كتابا وبعثه مع قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول ا صلى ا عليه وسلّم من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يدا فأطلع ا تعالى على ذلك رسول ا صلى ا عليه وسلّم استجابة لدعائه فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها وهذا بين في هذا الحديث المتفق على صحته .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن عمه أخبرني حسن بن محمد بن علي أخبرني عبد ا بن أبي رافع وقال مرة إن عبيد ا بن أبي رافع أخبره أنه سمع عليا Bه يقول : بعثني رسول ا صلى ا عليه وسلّم أنا والزبير والمقداد فقال [انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة قلنا أخرجي الكتاب قالت : ما معي كتاب قلنا لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول ا صلى ا عليه وسلّم فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول ا صلى ا عليه وسلّم فقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم يا حاطب ما هذا ؟ قال : لا تعجل علي إني كنت امرأ ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام فقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : إنه صدقكم] .

فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل ا اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم] وهكذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه من غير وجه عن سفيان بن عيينة به وزاد البخاري في كتاب المغازي : فأنزل ا السورة { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء } وقال في كتاب التفسير : قال عمرو ونزلت فيه { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء } وقال لا أدري الاية في الحديث أو قال عمرو قال البخاري قال علي يعني ابن المديني قيل لسفيان في هذا نزلت { لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء } فقال سفيان : هذا في

حديث الناس حفظته من عمرو ما تركت منه حرفا ولا أدري أحدا حفظه غيري .

وقد أخرجاه في الصحيحين من حديث حصين بن عبد الرحمن عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي قال : بعثني رسول ا صلى ا عليه وسلّم وأبا مرثد والزبير بن العوام وكلنا فارس وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم فقلنا : الكتاب ؟ فقالت : ما معي كتاب فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتابا فقلنا ما كذب رسول ا صلى ا عليه وسلّم لتخرجن الكتاب أو لنجردنك فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها وهي محتجزة بكساء فأخرجته فانطلقنا بها إلى رسول ا صلى ا عليه وسلّم فقال عمر : يا رسول ا قد خان ا ورسوله والمؤمنين فدعني فلأضرب عنقه فقال النبي A : [ما حملك على ما صنعت ؟] قال حاطب : وا ما بي إلا أن أكون مؤمنا با ورسوله A أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع ا بها عن أهلي ومالي وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع ا به عن أهله وماله فقال : [صدق لا تقولوا له إلا خيرا] .

فقال عمر : إنه قد خان ا ورسوله والمؤمنين فدعني فلأضرب عنقه فقال : [أليس من أهل بدر ؟ ـ فقال ـ لعل ا قد اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ـ أو قد غفرت لكم] فدمعت عينا عمر وقال : ا ورسوله أعلم هذا لفظ البخاري في المغازي في غزوة بدر وقد روي من وجه آخر عن علي قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسن الهسنجاني حدثنا عبيد بن يعيش حدثنا إسحاق بن سليمان الرازي عن أبي سنان هو سعيد بن سنان عن عمرو بن مرة الجملي عن أبي البحتري الطائي عن الحارث عن علي قال : لما أراد النبي A أن يأتي مكة أسر إلى أناس من أصحابه أنه يريد مكة منهم حاطب بن أبي بلتعة وأفشى في الناس أنه يريد خيبر قال : فكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة أن رسول ا A يريدكم فأخبر رسول ا A قال فبعثني رسول ا A وأبا مرثد وليس منا رجل إلا وعنده فرس فقال : [ائتوا روضة خاخ فإنكم ستلقون بها امرأة معها كتاب فخذوه منها] .

فانطلقنا حتى رأيناها بالمكان الذي ذكر رسول ا A فقلنا لها هات الكتاب فقالت ما معي كتاب فوضعنا متاعها وفتشناها فلم نجده في متاعها فقال أبو مرثد لعله أن لا يكون معها فقلت ما كذب رسول ا A ولا كذبنا فقلنا لها لتخرجنه أو لنعرينك فقالت أما تتقون ا ! ألستم مسلمين ! فقلنا لتخرجنه أو لنعرينك قال عمرو بن مرة فأخرجته من حجزتها وقال حبيب بن أبي ثابت : أخرجته من قبلها فأتينا به رسول ا A فإذا الكتاب من حاطب بن أبي بلتعة فقام عمر فقال يا رسول ا خان ا ورسوله فائذن لي فلأضرب عنقه فقال رسول ا A : [أليس قد شهد بدرا ؟ قالوا : بلى وقال عمر : بلى ولكنه قد نكث وظاهر أعداءك عليك فقال رسول ا A : فلعل ا اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم إني بما تعملون بصير ففاضت عينا

عمر وقال : ا ورسوله أعلم فأرسل رسول ا A إلى حاطب فقال : يا حاطب ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا رسول ا إني كنت امرأ ملصقا في قريش وكان لي بها مال وأهل ولم يكن من أصحابك أحد إلا وله بمكة من يمنع أهله وماله فكتبت بذلك إليهم وا يا رسول ا إني لمؤمن با ورسوله فقال رسول ا A : صدق حاطب فلا تقولوا لحاطب إلا خيرا] قال حبيب بن أبي ثابت : فأنزل ا تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة } الاية وهكذا رواه ابن جرير عن ابن حميد عن مهران عن أبي سنان سعيد بن سنان بإسناده مثله .

وقد ذكر ذلك أصحاب المغاري والسير فقال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا قال : لما أجمع رسول ا A المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول ا A من الأمر في السير إليهم ثم أعطاه امرأة زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة وزعم غيره أنها سارة مولاة لبني عبد المطلب وجعل لها جعلا على أن تبلغه لقريش فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به وأتى رسول ا A الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام فقال : [أدركا امرأة قد كتب معها حاطب كتابا إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم] .

فخرجا حتى أدركاها بالحليفة حليفة بني أبي أحمد فاستنزلاها بالحليفة فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئا فقال لها علي بن أبي طالب : إني أحلف با ما كذب رسول ا وما كذبنا ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك فلما رأت الجد منه قالت : أعرض فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه فأتى به رسول ا A فدعا رسول ا A حاطبا فقال : [يا حاطب ما حملك على هذا ؟ فقال : يا رسول ا أما وا إني لمؤمن با وبرسوله ما غيرت ولا بدلت ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم فقال عمر بن الخطاب : يا رسول ا دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق فقال رسول ا A :] وما يدريك يا عمر ؟ لعل ا قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال [اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم] .

فأنزل ا D في حاطب { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا با ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل * إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون * لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم وا بما تعملون بصير * قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين

معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون ا كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا با وحده } إلى آخر القصة وروى معمر عن الزهري عن عروة نحو ذلك وهكذا ذكر مقاتل بن حيان أن هذه الايات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة أنه بعث سارة مولاة بني هاشم وأنه أعطاها عشرة دراهم وأن رسول ا A بعث في أثرها عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب Bهما فأدركاها بالجحفة وذكر تمام القصة كنحو ما تقدم وعن السدي قريبا منه وهكذا قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد أن هذه الايات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة .

فقوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق } يعني المشركين والكفار الذين هم محاربون ولرسوله وللمؤمنين الذين شرع ا عداوتهم ومصارمتهم ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء كما قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم } وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد وقال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا ا إن كنتم مؤمنين } وقال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا عليكم سلطانا مبينا } وقال تعالى : { لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من ا في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم ا نفسه } ولهذا قبل رسول ا A عذر حاطب لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد .

ويذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا مصعب بن سلام حدثنا الأجلح عن قيس بن أبي مسلم عن ربعي بن حراش سمعت حذيفة يقول : ضرب لنا رسول ا A أمثالا واحدا وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر قال فضرب لنا منها مثلا وترك سائرها قال : [إن قوما كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبر وعداء فأظهر ا أهل الضعف عليهم فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم فأسخطوا ا عليهم إلى يوم يلقونه] وقوله تعالى : { يخرجون الرسول وإياكم } هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة وحده ولهذا قال تعالى : { أن تؤمنوا با ربكم } أي لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم با رب العالمين كقوله تعالى : { وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا با العزيز الحميد } وكقوله تعالى : { الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا ا } .

وقوله تعالى : { إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي } أي إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم فلا توالوا أعدائي

وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقا عليكم وسخطا لدينكم وقوله تعالى : { تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم } أي تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر { ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل * إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء } أي لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال { وودوا لو تكفرون } أي ويحرصون على أن لا تنالوا خيرا فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضا .

وقوله تعالى : { لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير } أي قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءا ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ولو كان قريبا إلى نبي من الأنبياء قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا حماد عن ثابت عن أنس أن رجلا قال : يا رسول الله أين أبي ؟ قال [في النار] فلما قفى دعاه فقال [إن أبي وأباك في النار] ورواه مسلم وأبو داود من حديث حماد بن سلمة به